

### المسلمون فى الغرب

### مواطنون ذوو ولاء أم طابور خامس؟

إن أحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ وتأثيراتها الدراماتيكية قد أثارت الاهتمام بالجماعات المسلمة فى الغرب كما لم يحدث من قبل. فحقيقة كون القائمين على التخطيط لذلك الاعتداء قد اتخذوا من ألمانيا مكانا لهم، فضلا عن قضائهم لوقت طويل فى الغرب قد استدعى الملف المضطرب بالفعل للمسلمين فى أوروبا على نحو غير مسبوق. فهل المسلمون فى الغرب باعتبارهم الآن أعداء - طابور خامس بانتظار إشارة بدء الهجوم؟ لقد أضحى التعبير الصريح من قبل الأوروبيين والأمريكيين عن المشاعر الدفينة الكامنة والعميقة المناهضة للإسلام أكثر قبولا فى ظل المخاوف الكامنة من المناخ الأمنى الجديد.

لقد حل العنف، بالفعل، فى أوروبا ذاتها. ففى آذار/مارس ٢٠٠٤، انفجرت مجموعة من القنابل فى العديد من عربات القطار بمديرية مما أسفر عن مقتل ١٩١ شخصا وإصابة أكثر من ١٨٠٠. وقد نسبت المؤامرة إلى أشخاص مسلمين من شمال إفريقيا تأثروا "بإلهام" تنظيم القاعدة و"وحيه"، وإن لم توجد أية أدلة تشير إلى وجود رابطة مشتركة. وفى تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٤، صدمت هولندا جراء حادث الاعتداء الوحشى الذى تم فى رابعة النهار، وأسفر عن مقتل الكاتب ومنتج الأفلام الهولندى "ثيو فان جوخ"، والذى وجد أن قاتله مواطن هولندى مغربى المولد أصبح راديكاليا خلال حرب العراق. وقد كان "فان جوخ" والذى سبق له أن قام بالسخرية من اليهود مصابا بتعصب أحرق، ومناهضا صريحا للإسلام. وقد أنتج فيلما قصيرا حيث عرض آيات من القرآن على جسد يتلوى لامرأة عارية كصرخة احتجاج ضد "التمييز الإسلامى ضد المرأة". أما القاتل، فقد أحدث صدمة حتى

داخل الأوساط الأوروبية الليبرالية مفادها وجود جماعات من الأجانب يهتم بعضهم "بالاعتبارات الدينية" اهتماما يدفع إلى ارتكاب جرائم واعتداءات.

وفي تموز/يوليو ٢٠٠٥، قام العديد من مسلمي بريطانيا بسلسلة تفجيرات انتحارية بمترو الأنفاق بلندن أسفرت عن مقتل ٥٢ شخصا وإصابة ٧٠٠. وقد زعم أن مرتكبي الانفجار قد تأثروا كثيرا بمشاركة بريطانيا في الحرب بالعراق. كذلك، ففي حزيران/يونيو ٢٠٠٧، قام مسلمان - أحدهما طبيب بريطاني من أصول عراقية، بقيادة ناقلة شحن تحمل أنابيب معبأة بغاز "البرويان"، والانطلاق بها صوب بوابة مطار غلاسكو. ولم يسفر الاعتداء عن أية قتلى، وإنما خلف العديد من المصابين. وكما سبق، فقد أعزيت نوافع ذلك الحادث إلى أن تكون ذات صلة بالأحداث الدائرة في العراق آنذاك.

وفى تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٧، اندلعت الاضطرابات لعدة أيام بالقرب من باريس على أيدي مهاجرين أفارقة وعرب استشاطوا غضبا من مشكلتهم فى سعيهم للاندماج بداخل الثقافة والاقتصاد الفرنسيين. وخلال تلك الاضطرابات، تم تدمير العديد من الممتلكات، وإن لم يتم استخدام أية تكتيكات إرهابية على الإطلاق. وقد أسهمت جميع تلك الحوادث فى استحضار ظاهرة وجود المسلمين فى أوروبا واستدعائها إلى مقدمة الاهتمامات وصدارة المشهد، عن طريق طرح الأسئلة عن ولاء أولئك المسلمين، ورغبتهم، وقدرتهم على الاندماج داخل المجتمع الأوروبى. ومن الأسئلة التى تطفو على السطح، بداهة : هل هناك ثمة "اختلاف" يصيغ الإسلام ... اختلاف من شأنه إدراج المهاجرين المنتمين للإسلام ضمن فئة مستقلة عن فئات يشغلها مهاجرون آخرون؟ أو دعنا نصيغ السؤال على نحو مختلف: إذا لم يكن هؤلاء المهاجرون مسلمين، أكان للمشكلات والقضايا ذات الشأن أن تبدو مختلفة بالكلية؟ والإجابة عن السؤال بصيغتيه هى ... النفى المطلق.

وقد حذر "طارق رمضان"، أحد أبرز الباحثين الأوروبيين المسلمين، من مغبة ما أسماه "الوقوع فى شرك أسلمة المشكلات"، بمعنى أن تعزى مشاكل المجتمع المسلم، بصورة أو بأخرى، إلى "الإسلام". ويستطرد "رمضان" قائلاً: "لدينا مشكلات اجتماعية ... ولدينا مشكلات اقتصادية ... ولدينا مشكلات حضارية. وجميع تلك المشكلات لا ترتبط ألبتة بالدين، بل ترتبط بالسياسات الاجتماعية المتبعة ... بيد أنه عندما يكون لدينا سياسيون يفتقرون إلى حلول اجتماعية، فإنهم يعمنون إلى الزعم بأن تلك المصاعب الاجتماعية إنما تنشأ من حقيقة كون هؤلاء الأفراد مسلمين أو عرباً". ويعبارة موجزة، ستواجه أوروبا، بل إنها لتواجه بالفعل، مشكلات كبيرة تتعلق بالمهاجرين إلى أراضيها من العالم النامي خلال تلك الحقبة من عصر العولمة الذى نعيشه، حتى ولو لم يكن ثمة إسلام على الإطلاق.

إن أوروبا تمثل "حدوداً" جد مغايرة أمام المسلمين عما تمثله روسيا أو الهند

أو الصين. فالمسلمون في أوروبا ليسوا من السكان الأصليين، بل هم مهاجرون جدد ممن تركوا أوطانهم، طواعية وعلى نحو فردي، للهجرة إلى بلدان غير إسلامية ابتغاء للعمل وإقامة أسر جديدة. وفيما ذهب البعض للعمل في أوروبا باعتباره نقلة مؤقتة اقتضتها ظروف بذاتها واستهدفت أمورا مادية، إلا أن قرارهم كان ينحو، على نحو مطرد، صوب الاستقرار والإقامة الدائمة في أوروبا، ومن ثم سعيهم للحصول على جنسية البلدان التي يحيون بها، وقبول وضعهم كأقلية في مجتمع تسوده أغلبية مغايرة.

وبطبيعة الحال، تختلف الحياة في أوروبا المعاصرة ذات التعدد الثقافي اختلافًا كليًا عن الحياة في معظم البلدان على امتداد العالم مما يستتبع انبثاق قضايا متجددة ومعقدة تتعلق بهوية المهاجرين. وفي معظم الحالات، تمثل أوروبا أول احتكاك للمسلمين بمجتمع تحلل بالكلية من مظاهر الإثنية والدين ... ذلك المجتمع الذي لم تعد فيه تلك المظاهر ذات أهمية في الحياة، إلى أن بدأت أفواج تترى من المهاجرين تطأ الأراضي الأوروبية. كذلك، فقد كانت الخبرة والتجربة الأوروبية جديدة بالنسبة للمهاجرين المسلمين - وكذلك بالنسبة لأغلب المهاجرين الوافدين إليها من بلدان العالم النامي.

وعلى نقيض أمريكا الشمالية، فإن أوروبا، بطبيعتها، ليست مجتمعًا مهاجرًا، إذ تشكلت من قوميات وثقافات أوروبية غربية تالدة وعريقة يغلب عليها نمط الحياة المحافظ. ويقينا، كان "الأخر" المسلم مالوفًا تمامًا لأوروبا كونه العدو التاريخي اللدود لها - ولكنه غالبًا ما كان عدوا بعيدا ... جغرافيا. ففي عام ٧٣٢، قامت أوروبا بطرد الجيوش العربية من بواتيه بإسبانيا المسلمة آنذاك - واعتبرت، بذلك، أنها قد أنهت، وللأبد، أي احتمال لغزو إسلامي مستقبلي، وأية "أسلمة" محتملة لأوروبا. وقد تقابل كل من الأوروبيين والمسلمين في ساحة الوغى أثناء الحروب الصليبية. وفي عام ١٤٩٢، وضع الملك فرديناند والملكة إيزابيلا نهاية قاسية لسبعة قرون من الحكم العربي للأندلس ... ذلك الحكم الذي اتسم بالتعددية، حيث تجاوزت

الثقافات الإسلامية، والمسيحية، واليهودية على امتداد الأراضى الإسبانية - تلك النهاية التى سطرت لإطلاق أول برنامج أوروبى للتطهير العرقى، إذ شهد العام المذكور طرد المسلمين واليهود من إسبانيا. كذلك، فقد أوقفت الجيوش البولندية زحف القوات العثمانية عام ١٦٨٣ أثناء حصار فيينا ... أقصى بقعة توغلت إليها الجيوش العثمانية فى أوروبا الشرقية. ثم مرت الأيام، لتقوم أوروبا نفسها بغزو جميع الدول الإسلامية واحتلالها، تقريبا، على امتداد المعمورة. وفى وقت لاحق، جاهدت أوروبا لإخماد المقاومة المناهضة للكولونيالية، والتى أشعلتها الجماهير المسلمة. كذلك، فقد سيطرت أوروبا على جميع ما يتعلق باستخراج البترول وإنتاجه فى الأراضى الإسلامية قبل أن يدور الزمان دورته، وتسترد الشعوب الإسلامية حقها فى مواردها. ولقد كانت محاولات فرنسا للإبقاء على سيادتها على الجزائر محاولات شديدة الدموية، وأضحى الجزائريون هدفا للكراهية والعداء فى فرنسا ككل. لذا، فإن تجربة أوروبا التاريخية وذكرياتها بشأن تعاملاتها مع المسلمين عامة لم تكن إيجابية على الإطلاق. ولكن خلال النصف الثانى من القرن العشرين، انبثقت علاقات جديدة لم تكن متوقعة بين أوروبا من جهة، وبين المسلمين من جهة أخرى، وذلك فى أعقاب مجيء أعداد كبيرة من المسلمين إلى الأراضى الأوروبية كمهاجرين.

### من مسلمو أوروبا؟

يمثل المسلمون نحو ٥٪ من مجموع سكان الاتحاد الأوروبى. وتحظى فرنسا بنصيب الأسد من إجمالى عدد المسلمين بأوروبا (٤,٥ مليون مسلم)، تليها ألمانيا التى تستأثر بنحو ثلاثة ملايين مسلم، فبريطانيا (١,٦ مليوناً)، وأكثر من نصف مليون مسلم فى كل من إيطاليا، وهولندا - كل على حدة. أما النمسا وبلجيكا فيوجد فى كل منهما أقل من نصف مليون مسلم. وبالنسبة لإجمالى عدد المسلمين بأوروبا، فإن نحو ٥٠٪ منهم قد ولد بالمهجر.

ولقد شهدت ستينيات القرن العشرين أول هجرة جادة للمسلمين إلى أوروبا ... تلك الهجرة التي جاءت كاستجابة لحاجة أوروبا، آنذاك، إلى عمالة تقوم بأعمال يعينها يستتفك الأوروبيون ويرفعون عن القيام بأمثالها، وبذلك بدأ عصر "العمالة الوافدة". كذلك، فما كان ينظر إليه على أنه "ترتيبات مؤقتة" من قبل الطرفين، سرعان ما أضحي أمرا شبه دائم. ولقد ازدادت أعداد المهاجرين حين شرعت البلدان الأوروبية في السماح للعمالة الوافدة باصطحاب أفراد من عائلاتهم ونوهم للانضمام إليهم بالمهجر. وقد مثلت الخلفيات السوسيواقتصادية للمهاجرين مشكلة رئيسية أمام أوروبا : إذ كانت نسبة كبيرة من المهاجرين عمالة غير مؤهلة وغير ماهرة تفتقر إلى درجة مقبولة من المستوى التعليمي ... تلك العمالة كانت أقل استعداداً للتزاوم مع المجتمع الأوروبي، والاندماج في نسيج النظام الاجتماعي هناك، وقد انجرفت تلك الطبقة نحو تكوين "غيتو إثني" ينتظم أفرادها. وتتعارض أصول الطبقة العاملة السائدة من المهاجرين المسلمين بأوروبا مع الخلفيات العملية المتخصصة والماهرة للمهاجرين المسلمين في أمريكا الشمالية.

وتتحدّر أصول المهاجرين من المسلمين بأوروبا من أصقاع متفرقة على امتداد العالم : ففي فرنسا، تنحدر غالبية المهاجرين المسلمين بها من دول شمال إفريقيا، أما نظيرتها في المملكة المتحدة فتأتى، بالأساس، من دول جنوب آسيا، وفي ألمانيا، فإن معظم المهاجرين من المسلمين قد قدموا من تركيا، ومن البوسنة وكوسوفو لاحقاً. فإذا ما أردنا تقييم المهاجرين وفقاً للمعيار الإثني، نجد أن العرب يشكلون ٤٥٪ من إجمالي المسلمين المهاجرين بأوروبا، يليهم الأتراك، قموطنو جنوب آسيا. أما الجماعات المسلمة الأخرى، فيتم تمثيلها بأعداد أقل بكثير. ومن الجلي أن هيكل المهاجرين المسلمين في أوروبا يتسم بالتنوع، سواء وفقاً للمعيار الإقليمي أو وفقاً للغة أو اللسان الذي ينتمون إليه، لذا فلا يستقيم أن نعتبر ذلك الهيكل متناغماً أو متجانساً.

وكما أوضحت "جوسيلين سيزاري"، باحثة العلوم السياسية بجامعة السوربون

بفرنسا، فإنّ الوضع السوسيواقتصادي للمسلمين الأوروبيين هو وضع بالغ الهشاشة، خاصة عندما يتم تصويره باستخدام معدلات البطالة السائدة. فالبطالة المنتشرة فيما بين المسلمين بأوروبا تعد أعلى بكثير من نظيرتها الخاصة بغير المسلمين. ففي هولندا، نجد أن ٣١٪ من المغاربة، و٢٤٪ من الأتراك عاطلون عن العمل. أما الأمر الأكثر إزعاجاً فهو أن معدلات البطالة بين الشباب المسلم كانت في عام ١٩٩٥ ضعف نظيرتها بين غير المهاجرين المتمين للمستوى ذاته من التحصيل الدراسي. أما في المملكة المتحدة، فإن معدل البطالة بين المهاجرين من بنجلاديش، وباكستان يبلغ ثلاثة أمثال نظيره بين غير المهاجرين، أما في المدن الهامشية، فإن ما يقرب من نصف المهاجرين من بنجلاديش عاطل عن العمل. بل الأسوأ من ذلك، "انتقال ذلك التهميش إلى الجيل الذي ولد وتلقى تعليمه في بريطانيا".

إن المشكلة القائمة تغذي نفسها ذاتياً، إذ يصعب على المسلمين من الطبقة العاملة، وأولئك ممن تلقوا نزراً يسيراً من التحصيل الدراسي أن يندمجوا في نسيج المجتمع الأوروبي، أو حتى التواصل مع الثقافة هناك، ونتيجة لذلك يشعر هؤلاء بكونهم مهمشين، فضلاً عن النظر إليهم كدخلاء بما يشعرونهم دائماً بالغرابة والانعزالية فيفضلون أن يحتموا داخل شرنقتهم الثقافية والحضارية، مما يساعد في التأكيد على الصورة النمطية لمقاومة المسلمين للاندماج داخل المجتمعات المهاجر إليها. كذلك، تتوالد مشاعر الاستياء، وتغدو رمزية التمايز في اللباس والمأكل واللغة أكثر تعبيراً عن مشاعر كلا الطرفين وانفعالاتهما. وتبدو هولندا التجسيد الأمثل لإحدى أدق الأمثلة على تلك المشكلة. فقد صدر تقرير عن البرلمان الهولندي عام ٢٠٠٤ جاء به: "إن المجتمع ذا التعددية الثقافية كان إخفاقاً مخيباً للآمال، إذ أدى انتشار "الغيتو الإثنى"، على تعدد مستوياته، وكذا الثقافات العديدة غير المنتمية لثقافة المجتمع - إلى تمزيق أواصر الدولة، وغدت خطورة ظاهرة "الاستقطاب" لا سبيل إلى تجنبها سوى تحول المهاجرين المسلمين ليصبحوا

مواطنين هولنديين". بيد أن ما خُص إليه التقرير جاء محبطاً وصادماً، إذ إن صيغة الحل المقترح بأن يصبح المسلمون ... "مواطنين هولنديين" قد أصابها العوار. فماذا يقصد بأن يصبح المرء "هولندياً"؟ أينصرف ذلك إلى عدم تمييز ذلك "المتحول" عن سائر المواطنين الهولنديين التقليديين سوى من خلال سماته وخصائصه الظاهرية البادية للعيان؟ أم يتحتم على الراغب في التحول التخلي التام عن سماته اللغوية والثقافية الأصلية المميزة له ولوطنه الأم؟ أم أن ثمة حداً أدنى من السمات "الهولندية" التي يتعين أن يكتسبها المرء، دون غيرها من السمات؟ وبالاحتكام إلى المشاهد في العديد من البلدان، نجد أن الاندماج والاستيعاب داخل نسيج المجتمع المهاجر إليه عملية تتطلب انقضاء سنين عدة، وتعاقب أجيال تلو الأخرى ... إذا كان المراد تأسيس نوع من الثقافة الجدى، ناهيك عن الاندماج الفعلى في المجتمع.

بيد أن المشكلة المذكورة لا تقتصر على الإسلام فحسب، فأية جماعة من العمال غير المتعلمين والذين ينتمون إلى العالم النامى لديها المشكلات ذاتها فيما يتعلق باندماجها في المجتمع. إلا أنه يجب علينا، كذلك، ألا نغفل العامل الذى يمثله "الإسلام" نتيجة ظاهرة اجتماعية مثيرة أخذت تنتشر الآن بين صفوف المهاجرين: انبثاق هوية جديدة من "المسلمين الأوروبيين". فالمهاجرون الجزائريون، والأتراك، والباكستانيون ممن لهم روابط مباشرة بأوطانهم الأم قد قادوا مسيرة انتشر صداها ما بين مهاجرى الجيل الأول إلى أوروبا، وخلقت "هوية إسلامية" جديدة تماماً -بتميزها عن "هوية إثنية" ترتكن، بالأساس، إلى الأصول القومية للمهاجر. وتأتى هذه "الهوية الإسلامية" كاستجابة مباشرة لتحلل المهاجرين من الروابط التى كانت تشدهم إلى أوطانهم الأم- والتى أضحت الآن ثقافة آبائهم البعيدة وغير الملائمة لأوضاعهم الجديدة ببلدان المهجر. وتتيح "الهوية الإسلامية" رابطة مشتركة عبر خطوط إثنية بالتوازي مع تجارب وخبرات اجتماعية مشتركة بما فيها التمايز كاتقلية جديدة في المجتمع الأوروبى. إن الجيل الجديد أوروبى المولد يتحدث لغات

أوروبية بطلاقة، ويختلف إلى المدارس الأوروبية. ورغم أن هذا كله، يتم إقصاؤه وتهميشه لأسباب سوسيواقتصادية فيلجأ إلى "الإسلام" كهوية إثنية بينية، وذلك في ظل غياب أية هوية أخرى يمكن الانتماء إليها. إلا أن لجوء ذلك الجيل للدين بتبنيه "هوية إسلامية" يثير الشكوك من حوله في أوروبا التي هجرت الدين، ونحتت جانباً.

إن الأزمة الحالية هي أزمة مزدوجة. فنتيجة للمأزق الذي تواجهه جراء الهجرة إلى أراضيها، فإن أوروبا تواجه الآن أزمة هوية خاصة بها، يتم بموجبها إعادة تقييم عملية مواجهة العولمة برمتها، والتعامل مع التعددية الثقافية القائمة. أما العنف المتفشى في إقليم الشرق الأوسط، على امتداده، فلا يعبأ به المهاجرون المسلمون في أوروبا كثيراً، إلا أن حفنة من الحوادث العنيفة بأوروبا، والضالع فيها مسلمون أوروبيون لجديرة بأن تستثير مخاوف أوروبا من "الإسلام" - والتي تؤدي، بنورها، إلى تعزيز "الهوية الإسلامية" للمهاجرين وترسيخها. وبالطبع، فنحن إزاء "حلقة مفرغة". فهل يكون تبني "هوية إسلامية" جديدة، لا ترتكن إلى البعد الإثني، خطوة للأمام نحو المزيد من اندماج المهاجرين في بلدان المهجر؟ أم يكون خطوة باتجاه تعزيز روح تضامنية اجتماعية جديدة يصعب استيعابها في نهاية المطاف؟

إن القلق الذي يساور أوروبا بشأن عمليات الاستيعاب والاندماج له وجاهته ومبرراته. فربما كان المسلمون الآن، في حقيقة الأمر، من أصعب الجماعات الثقافية لأن تستوعب بالكامل، وذلك، تحديداً، بسبب القوة الهائلة والعزيمة الماضية التي طالما ميزت تلك الثقافة عبر أزمنة طوال من اعتداد بالنفس، وإدراك للذات فضلاً عن همة عالية وتصميم شديد على حماية المجتمع الإسلامي، والحفاظ على مقومات الثقافة الإسلامية. وفضلاً عن ذلك كله، فإن "الإسلام" ليضفي قوة اجتماعية جديدة على مهاجري الجيل الأول تمكنهم من مجابهة مصاعب عملية الاندماج في بلدان المهجر.

واليوم، فإن الأمر يتعلق بالاحتفاظ "بهوية إسلامية" أكثر من ارتباطه بهوية

إثنية أو أخرى لغوية. فقد يبتهج المرء بتعلم اللغة الهولندية، والعمل ضمن إطار المجتمع الهولندي، إلا أنه لا يرغب في التنازل عن هويته الإسلامية". إن الاندماج الكامل لن يكون مفهوما ذا شأن بالنسبة لأغلب الأقليات غير الغربية إذا أريد به أن يكون من الصعب تمييز المهاجر عن المواطن الهولندي الأصيل، أى عن طريق اندثار ثقافته الأصلية بالكلية. فالعبرة هي في كيفية أن يجمع المرء بين كونه مسلما وكونه هولنديا، وهو أمر يمكن تحقيقه بالفعل. فإذا كان المراد أن يرتضى المرء القيم المدنية الهولندية، وأن يكون مواطنا مستقيما، راغبا في المشاركة في المجتمع الهولندي، والمساهمة في ارتقاء الأوضاع بهولندا، إذأ فمن السهولة بمكان أن يصبح المرء هولنديا. وبذا، تفقد القضية حدتها وإلحاحها بتعاقب الأجيال.

والمأزق المذكور له نظائر وأشباه تتعلق بهواجس اليهود المبكرة ومخاوفهم بشأن مظاهر عملية الاندماج في المجتمع الأمريكي، إذ يشير الباحث الأمريكي "إيريك غولدشتاين" إلى أن :

العقود الأولى من القرن التاسع عشر قد جلبت للمهاجرين اليهود النازحين من بلدان وسط أوروبا فرصا غير مسبوقة للتكامل الاجتماعي. وبينما أثارت تلك الفرص حماسة اليهود، إلا أنها قد ولدت لديهم مشاعر القلق حول الحدود التي يتعين أن تفصل بينهم وبين باقى المجتمع. وقد نشأ الجانب الأكبر من مشاعر القلق تلك من التوترات بين رغبة اليهود في التكامل مع المجتمع الجديد من جهة، وبين رغبتهم في الاحتفاظ بهوية يهودية مميزة. إن تاريخ معاناة اليهود من الاضطهاد والإقصاء المجتمعي قد أضفى عليهم حسا ووعيا اجتماعيا قويا كإثنية ... ذلك الوعي الذى يصعب عليهم التنازل عنه، والذى جعلهم يصفون قيمة عالية على استدامة الجماعة ويقائنها. وبما أنه قد تم النظر إلى الروابط الاجتماعية على أنها القوة الحمايية التي ضمنت استمرارية الجماعة اليهودية في الماضى، فإن معظم اليهود يكرهون المساس بتلك الروابط.

تلك هي الأمور التي تشغل بال الجماعة اليهودية - باعتبارها أقلية ذات ثقل تاريخي وثقافي لا ترغب، عامة، في الاندماج في المجتمعات التي تحيا بها، خوفاً من خطر الذوبان، بل والتلاشى كلية. إذ لم يندمج اليهود جيداً في الثقافتين الأمريكية والأوروبية لأمد طويل، وكانوا هدفاً لممارسة التمييز ضدهم حتى أزمته عاصرتها الذاكرة الحية للشعوب. إضافة إلى أن اليهود، وعلى امتداد عقود طويلة، قد تم الربط بينهم وبين الحركات والتنظيمات الراديكالية، وكذلك الإرهاب الفوضوي ... الأمر الذي سيطر على المخيلة الغربية في بدايات القرن العشرين بما يشبه الإرهاب الذي يعزى إلى المسلمين اليوم.

وبالطبع، فإن وضع المسلمين اليوم يختلف اختلافاً جلياً عن وضع اليهود من مناح عديدة. فالمسلمون، اليوم، قد صاروا هدفاً وموضوعاً لشكوك عميقة سافرة ومستترة، بل لقد أصبحوا هدفاً يمارس ضده التمييز وفقاً للأسس القانونية لمجرد الاشتباه في أي أمر يمس القضايا الأمنية. فالمسلمون في الغرب بانتظار الحصول على مزايا انضباط السلوك السياسي العام ومناقعه، وتظل سماتهم وثقافتهم هدفاً دائماً للتندر، والسخرية، والتهمك، والكراهية على نحو لم يعد المجتمع الغربي يسيغه فيما يخص الأمريكيين من أصول إفريقية، أو اليهود، أو السكان الأصليين لأمريكا.

إذاً، يدور الجدل الرئيسي، هنا، حول المشكلات المتعلقة بالهجرات الكثيفة للملونين إلى الغرب، في وقت يشهد توترات جيوبوليتيكية بالغة في العالم الإسلامي نفسه. كذلك، فإنه من المؤكد أن "الإسلام" يخلق مناخاً للترابط الاجتماعي، وينشئ روابط عالمية واسعة المدى بالمقارنة بأكثرية الجماعات المهاجرة الأخرى. فقد شهدت الولايات المتحدة الأمريكية، من قبل، أقليات عسوية على التوازم والاندماج بالمجتمع، كالهنغارين، والإيطاليين، والإيرلنديين، والصينيين، وبالطبع اليهود ... أولئك جميعاً ممن كان ينظر إليهم على أنهم ينتمون إلى عشيرتهم فحسب، وهو ما يعكس، إلى حد كبير، غياب أي بديل مجتمعي آخر.

## اليسار والإسلام (التحالف الشائن)

في السنوات الأخيرة، تولدت بعض المخاوف لدى الجماعات المناصرة للصهيونية وجماعات المحافظين الجدد من أن تحالفا خطيرا ومربيا قد أخذ في شق طريقه بين "اليسار" و"الإسلام" : وهو تحالف نشأ في أوروبا يقضى بأن "تحصل الأحزاب اليسارية على عدد من العملاء الجدد ... أقصد الناخبين ...، في مقابل حصول المسلمين على امتيازات ومعونات، بالإضافة إلى الإبقاء على الحدود مفتوحة، بدرجة أو بأخرى، أمام هجرات المسلمين".

أما التقارب الثاني بين الطرفين فيتمحور حول "كراهية أمريكا"، والتي يتقاسم اليسار مشاعرها، عن جدارة، مع الإسلاميين. لذا، يشار إلى تعاطف الإسلاميين وتجاوبهم مع الانتقادات اليسارية لأمريكا والغرب ... والعكس بالعكس. وفي هذا الإطار، كتب المراقب الأمريكي "ويليام ليند" : "إن الذئب أدى إلى وقوع التفجيرات الأخيرة في لندن (تموز/ يوليو ٢٠٠٥)، فضلا عن العديد من الحوادث الأخرى التي ستقع تباعا في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية - هو بلا شك "الحلف الماركسي-المحمدي". فمرة أخرى، أبرم العدوان اللودان، الماركسية، وتحديدأ، الماركسية الثقافية، والتي تعرف "بالانضباط السياسي"، والإسلام - صفقة شيطانية يلتزم بموجبها كل طرف بموازرة الطرف الآخر ضد العدو المشترك ... مآثر الغرب المسيحي".

ولعل الإشارة التي انطوت عليها الجدالات بهذا الشأن هي أن المحافظين الجدد قد لمسوا، بالفعل، جانبا من الحقيقة : التعاون المحتمل بين مختلف الجماعات السياسية على امتداد العالم، والتي تناهض الأعراف الغربية والأمريكية في السيطرة والهيمنة، وتسعى جاهدة للتعاون من أجل إبطال مفعولها. إلا أن المحافظين الجدد يروق لهم أن ينعنوا سعى أمريكا الدحوب للإبقاء على الهيمنة الأمريكية أحادية القطب بأنه "سعى للحفاظ على التقاليد اليهودية-المسيحية". وبينما تمثل التقاليد اليهودية-المسيحية، بالفعل، جانبا من الثقافة الغربية، فإن الهيمنة الدولية لأمريكا تنصرف إلى

ما هو أبعد من ذلك، وتشير مخاوف قوى أخرى تتعلق بما يتجاوز مجرد "مشاعر الكراهية لإسرائيل وللتقاليد اليهودية-المسيحية".

فوفقاً لأحد المواقع اليمينية المناهضة للإسلام : [www.jihadwatch.org](http://www.jihadwatch.org) لقد لاحظ "أمير طاهري" -الإيراني بالمنفى- ذلك التعاون الماركسي-الإسلامي. فوفقاً له، فإن اليسار الأوروبي المتعصب يرى المسلمين باعتبارهم "الطبقة الدنيا" الجديدة في أوروبا : "ولا يقدم التحالف الماركسي-الإسلامي في أوروبا برنامجاً سياسياً متماسكاً، إذ تنبئ أيديولوجيته حول محاور ثلاثة : كراهية الولايات المتحدة الأمريكية، والحلم بإزالة إسرائيل واجتثاث جذورها من فوق خريطة العالم، والأمل في انهيار المنظومة الاقتصادية العالمية".

إذاً، فقد تم ترسيم حدود المعركة، الأمر الذي أدى إلى صعوبة اندماج المسلمين داخل المجتمع الأوروبي، وإغراق مخيلة المسلمين الأوروبيين بالصراع الأيديولوجي العالمي.

### انخراط المسلمين في المجتمعات غير المسلمة

يذهب العديد من المراقبين البريطانيين إلى تصوير المسلمين بالملكة المتحدة بأنهم يقفون خارج النظام السياسي البريطاني. فبالنسبة للجيل الأول من المهاجرين، كانت تلك هي الحال غالباً، فقد كان الانخراط السياسي، وفقاً لتجربتهم وخبرتهم الخاصة، عملية محفوفة بالأخطار حتى في أوطانهم الأم، والتي قد تكون أجبرتهم، بالفعل، على هجر تلك الأوطان تلمساً للأمن في ظل ثقافة مغايرة.

إلا أن "أمين ناصر" قد ذهب إلى أن مهاجري الجيل الأول من المسلمين في المملكة المتحدة يتمتعون بوعي سياسي، ويقومون بحشد تأييد المجتمع للتشريعات والحريات المدنية التي يتأثرون بها. ويصدق هذا، بصفة خاصة، على نطاق التشريعات المناهضة للإرهاب، والتي جلبت بعض المصاعب والمتاعب على الجماعة الإسلامية عن طريق تقييد حرية التعبير إبان حكومة توني بليز.

وفي مثال مدهش على التوافق، فإن نحو ١٠٪ من إجمالي تعداد الطلبة المسلمين في فرنسا يختلفون الآن إلى مدارس كاثوليكية خاصة. وتعد ندرة المدارس الإسلامية هناك أحد أسباب تلك الظاهرة، أما السبب الأهم فيمكن في إيمان الآباء والأمهات المسلمين بأن المدارس الكاثوليكية تنحو إلى تقديم صورة أكثر تسامحا عن دور الدين في الحياة، فضلا عن إبدائها تفهماً أرحب للإسلام عما تبديه مدارس الدولة العلمانية. كذلك يميل هؤلاء الآباء والأمهات إلى الإعجاب بتشديد المدارس الكاثوليكية على عنصر السلوك الأخلاقي. أما المظاهر الكاثوليكية للتعليم، بحد ذاتها، فيبدو أنهم لا يعيرونها كبير اهتمام. وفي المدارس الكاثوليكية، لا يوجد حظر على ارتداء الفتيات لأغطية الرأس في قاعة الدرس، وذلك على عكس المدارس التابعة للدولة. لذا، فوفقا للمعيار الديني، يوجد تعايش صحي في تلك المدارس، والذي قد يتيح قاعدة وأساسا جيدا للجيل التالي للتمتع بمناخ من التفاهم الديني على أسس تعددية.

وبينما اتبعت إدارة جورج بوش الابن سياسات تخريبية هدامة في أنحاء العالم الإسلامي كان من شأنها استفحال الأزمة وترسيخها، كان المجتمع الأمريكي ذاته أكثر نجاحا في دمج المسلمين في الإطار المجتمعي عما قام به الأوروبيون. فبدائية، وكما أشرنا سالفا، فإن الكثير من المهاجرين إلى أمريكا الشمالية هم فئة متخصصة حظيت بمستويات تعليمية أرقى، فضلا عن كونها أقدر على تحقيق الاندماج الثقافي من الطبقة العاملة المهاجرة إلى أوروبا. وبالإضافة إلى ما تقدم، فإن مجتمعات أمريكا الشمالية هي بدورها مجتمعات مهاجرة. إذأ، فهي، بمحض التعريف، أكثر تعددية ثقافية من المجتمعات الأوروبية. فباستثناء ثلة قليلة من الشوفينيين الأمريكيين المؤمنين بوجود بقاء الولايات المتحدة، بالأساس، مجتمعا للعنصر الأبيض ذي الأصول الأوروبية الشمالية والمعتنق البروتستانتية، فإن معظم الأمريكيين لا يشعرون، بالفعل، بأن قدوم مهاجرين جدد إلى الولايات المتحدة سيعمل على تغيير هيكل الثقافة الأمريكية على نحو كبير. أما المجتمعات الأوروبية،

كالدول الاسكندنافية وهولندا وبلجيكا، فإنها قليلة السكان ... إذا، فإن قدوم أعداد كبيرة من المهاجرين إلى أراضيها يمكن أن يفضى، بالفعل، إلى تغيير طبيعة الثقافة التقليدية المحلية بها، والتي طالما حوفظ عليها عبر الأجيال المتعاقبة. إن هذه البلدان لم تكن لتتوقع أن تكون مجتمعات متعددة الثقافة على أى نحو ملحوظ، لذا كانت التجربة فى تلك البلدان أقرب ما تكون إلى الصدمة القاسية.

أما طارق رمضان، والمشار إليه أنفا، فقد شدد على أن عملية اندماج المهاجرين فى بلدان المهجر ذات طبيعة مزدوجة. إذ يؤمن بأنه يتعين على المسلمين، أولاً، تحديد مسؤولياتهم والاضطلاع بها، ولى ذلك المطالبة بحقوقهم فى تلك المجتمعات الجديدة. فوفقاً له، يتوجب على المسلمين الذين يهاجرون إلى أوروبا بلا قيود ليس فقط تقبل، بل وتفهم ثقافة أوروبا ولغاتها المتعددة، وطبيعة تكوينها السيكولوجى المشتق من الخبرة التاريخية لها. فالمسلمون لا يمكنهم العيش خارج تلك الخبرة، أو أن يحيوا بمنأى عن الثقافة السائدة - إلا أن هذا ينبغي ألا يعنى، بالضرورة، تقبل المسلمين التام لجميع عناصر أنماط الحياة ومناحيها فى أوروبا. وقد لاحظ رمضان وجود بعض غلاة التقليديين والمتشددىن فى صفوف المسلمين الأوروبيين ... أولئك الذين لا يريدون الانخراط نهائياً فى المجتمعات الجديدة. وبالطبع، فما زال ثمة من يقول بأن: "كل ما هو أوروبى يخالف بالضرورة التقاليد الإسلامية". إلا أن التيار السائد للمسلمين فى أوروبا، والمكون من أولئك غير المستشعرين الغربية بها - هو جانب كبير من الحقيقة الأوروبية ... تلك الحقيقة التى تخضع دائماً للتطور والتكامل مع مولد أجيال متعاقبة من المسلمين فى المجتمعات الأوروبية وتنشئتهم بها.

كذلك، فقد أشار رمضان إلى أن أوروبا تمثل حضارة تتيح هامشاً واسعاً من الحرية الشخصية للأفراد كى يقوموا بما عساهم يريدون، فلا يوجد من يجبر المسلمين على اتباع أنماط حياة الآخرين. فإذا ما أمن الأوروبيون بضرورة حدوث تغييرات فى أنماط الحياة الأوروبية، يتوجب عليهم، إذا، أن يتوجهوا إلى صناديق

الاقتراع إذا كانوا يرغبون في إحداث التغيير المنشود، إلا أنه يتعين عليهم، أيضا، أن يدركوا أن اندماج المسلمين في المجتمعات الأوروبية لا يلزم المسلمين بأن يعيشوا كالدانمركيين أو الهولنديين التقليديين. فضلا عن ذلك، يجب أن يدرك الأوروبيون كيف أن طبيعة الاندماج والتكامل ذاتها تتغير هي الأخرى. فأوروبا ليست ثقافة وحضارة ستاتيكية جامدة هاجر إليها المسلمون كي يمثلوا عنصرا تصادميةا. لقد تكونت الحضارة الأوروبية على امتداد ألفى عام عن طريق تضافر العديد من الثقافات، والغزاة، والهمج، والحروب، والعوامل والمؤثرات الخارجية. لقد أسهم الإسلام بقسط وافر وفيض زاخر في تطور الثقافة الأوروبية في العصور الوسيطة، فضلا عن دوره في نقل الفلسفة اليونانية. لذا، يجب أن يعتمد الأوروبيون إلى التغيير، والارتقاء بثقافتهم التقليدية في تفاعلاتها مع قوى العولمة.

وفضلا عن ذلك، فقد تناول رمضان قضية الهوية والأسئلة المثارة بشأنها، مشيرا إلى الحقيقة الشهيرة من أننا جميعا نحمل هويات متعددة. لذا، فمن غير المنطقي سؤال المسلم: "أى من هاتين الهويتين تسبق الأخرى - الانتماء الإسلامي أم الانتماء لألمانيا؟" ويصف رمضان نفسه بأنه "سويسرى، أكاديمي، ذكر، مسلم، من أصول فلسطينية، نو ثقافة أوروبية" ... وهلم جرا. وتتوالى الهويات المختلفة بما يتماشى والموقف القائم.

وتبدو تلك المشاكل مالوفة كذلك في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث غالبا ما تنتقل التحديات الاجتماعية إلى ضرب من العنصرية "حين تكون مرتبطة بالمكسيكيين أو السود، أو حين ارتبطت، في عصور سابقة، بالإيطاليين، والهنغاريين، والإيرلنديين، والروم الكاثوليك، واليهود، والصينيين، والذين كانوا فيما مضى يعتبرون غير مندمجين بالمجتمع". وهناك، بالفعل، قضايا وشئون اجتماعية ترتبط باندماج المسلمين في المجتمعات الأمريكية والأوروبية، وغالبا ما تختلف المشاكل باختلاف الجماعات، وكذا باختلاف الأمكنة. على أن هذه المشاكل تتحو إلى الحل الذاتي عبر الزمن من خلال عملية الاندماج في المجتمعات الجديدة،

وقبول تلك الأخيرة لها. ويمثل انتخاب "باراك أوباما" رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية خطأ فاصلا فيما يتعلق بقضية الاندماج، كما كانت الحال من قبل عند انتخاب "جون كينيدي"، كأول رئيس للولايات المتحدة ينتمى إلى الروم الكاثوليك.

### مناهضة الغرب للإسلام

إن الأوضاع لا يمكن تحسينها بوجود آخرين فى الغرب ممن يرون أن الإسلام والمسيحية متداخلان فى صراع لا سبيل إلى تهدئة حدثه - تلك الرؤية التى تبدو كانعكاس فى المرآة للرؤية العالمية لمحمسى ومتعصبى تنظيم "القاعدة". فوفقا للقس "رود بارسلى"، من كنيسة "حصاد العالم"، فى كولومبوس بولاية أوهايو الأمريكية، والمستشار "الروحانى" للمرشح الجمهورى "جون ماكين" فى انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ٢٠٠٨، والذى كتب :

"إنه لمن الأهمية بمكان أن ندرك الوجه الحقيقى للإسلام، أى أن نراه وفقا لما هو عليه بالفعل ... إننى لا أؤمن بأن أمتنا يمكنها بحق أن تنهض برسالتها المقدسة، وتفى بأهدافها السماوية، إلا إذا أدركنا طبيعة صراعنا التاريخى مع الإسلام. إننى أدرك تماما أن هذه العبارة تبدو متطرفة، ولكننى لا أنزع للتملص من مضامينها. فالحقيقة هى أن أمريكا قد تأسست، ضمن أسباب أخرى، بنية القضاء على ذلك الدين الزائف وتدميره، فأنا أؤمن بأن أحداث الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ كانت دعوة للقتال ينبغى ألا نغفلها مطلقا.

لقد كان القضاء على الإسلام، ضمن أحلام أخرى، المحرك الذى دفع "كريستوفر كولبوس" للإبحار صوب العالم الجديد عام ١٤٩٢، لقد كان كولبوس أملا فى سحق الجيوش الإسلامية بواسطة الجيوش الأوروبية التى ستقوى شوكتها جراء الثروات المغدقة عليها من العالم الجديد. لقد كان هذا الحلم، ضمن أمور أخرى، هو الذى أنشأ أمريكا".

أما المبشر البروتستانتى الشهير "فرانكلين جراهام"، فقد أخبر وكالة أنباء

NBC عقب اعتداءات الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ : "نحن لا نهاجم الإسلام، بل العكس هو الصواب. فالرب الذى يؤمن به المسلمون ليس هو الرب الذى نؤمن به. إنه ليس ولد الرب وفقا للإيمان المسيحى، والإيمان اليهودى-المسيحى. إنه رب مختلف، وأنا أؤمن أن الإسلام دين ينطوى على الشرور والآثام".

وقد أثار "برنارد لويس"، من المحافظين الجدد، والباحث المعروف فى الشئون الإسلامية - المخاوف من أن الاتجاهات الحالية لتعداد السكان فى أوروبا قد تفضى، بسهولة، إلى إنتاج "أوروبا مسلمة". إلا أن الأرقام الفعلية لا ترجح مقولة "لويس" ونبوعته. وقد لوح بعض المراقبين اليمينيين بخطر أن تصبح أوروبا، فى المستقبل، "جزيرة عربية" جديدة !! ويدعم مثيرو المخاوف بشأن الإسلام أراهم ويدافعون عن موقفهم بالإشارة إلى ما لا يعدو إلا أن يكون، بحق، ملاحظات مثيرة للفتنة من قبل ثلة قليلة من رجال الدين الراديكاليين، من أمثال الشيخ السورى "عمر بكرى محمد"، والذى كان أثيرا لدى تليفزيون لندن :

"لماذا أدين أسامة بن لادن؟ أنا أدين تونى بليز، وأدين جورج بوش. لا ... لن أدين بن لادن مطلقا، أو غيره من المسلمين ... نحن لا نفرق بين المدنيين وغير المدنيين، أو الأبرياء وغير الأبرياء. نحن نفرق، فقط، بين المسلمين والكافرين. فحياة الكافر لا قيمة لها، إذ لا حرمة لها ولا قداسة".

وكذلك ملاحظة دياب أبى جهجه، اللبناى المقيم فى انتويرب ببلجيكا، والذى اتهم وأدان مفهوم "الاندماج" أو "الاستيعاب"، والذى يحلو للغرب اعتباره "مفهوما مثاليا" - بأنه "اغتنصاب ثقافى" يهدف إلى حصر جميع مسلمى أوروبا فى جماعة تابعة تفتقر إلى استقلالية القرار.

كذلك، فإن العديد من الملاحظات ووجهات النظر التى يبديها الوعاظ الراديكاليون، والذين اعتلوا منابر بعض المساجد فى الغرب، وبخاصة المملكة المتحدة، - تعد شائنة، ومحرضة، واستفزازية. إن هذه الملاحظات تحدث صدى فى

الصحافة، كما هي الحال بالنسبة للمتطرفين في المجتمعات الديمقراطية بأسرها. بيد أنه من المؤسف أنه في خضم "الحرب العالمية ضد الإرهاب" أن تصاعف أثرها المثير للفتن والقلق، بما يمكن أن يكون لها من تأثير فعلى في حفنة من شباب مهياً لأن يكون شباباً منطرفاً عدوانياً. إلا أن الموانع التي من شأنها الحد من حرية التعبير أو الخطابة ينبغي لها أن ترسم، بعناية وإنعام نظر، حدوداً وتخوماً قانونية. بيد أنه لا يستقيم اعتبار أحاديث جماعة صغيرة من المتطرفين الهامشيين ممثلة لطبيعة الإسلام في حقيقته، سواء في أوروبا أو غيرها، فالمشكلة الصغيرة ينبغي ألا يتم تضخيمها لتبدو ذات شأن أكبر.

وللأسف، فإن بعض المسلمين الذين يعانون اليأس، ويحيون حياة "العزلة" - يكونون أكثر ملامعة وقابلية لتلقى وتقبل نظرية "المؤامرة" التي يتم تضخيمها، كما يكونون عرضة للتأويلات المبالغ فيها بشأن جرائم الغرب الكولونيالي الغابرة - وهي أحداث تنطوي ، بالفعل، على قدر كبير من الحقيقة، ولكنها تفتقر إلى المنظور التاريخي السليم والاتساق التكاملي. وعلى الطرف المقابل من ذلك الطيف أو المدى، فقد تمت تنشئتنا في الغرب، عامة، على الإيمان بأن التجربة الكولونيالية الغربية كانت إيجابية بالضرورة، إذ لم تفتقر إلى حسن نية أو سلامة مقصد. لذلك، فحتى الاتهامات الموثوقة بشأن وحشية الغرب وعدوانيته خلال تلك الحقبة الكولونيالية غالباً ما يتم إنكارها على الفور من قبل الغربيين باعتبارها إما مغالياً فيها، وإما هامشية. لذا، فإن مهمة المسلمين في طرح قضيتهم التاريخية المتعلقة بأحداث الماضي ليست بالأمر الهين، إذ لا يتم الالتفات إليها، حتى أن النقاد الغربيين لسياسات الغرب غالباً ما يتم رفض طروحاتهم، أو عدم إيلائهم أدنى اهتمام في الصحافة الأمريكية السيارة.

على أن الأمر الأكثر إزعاجاً أننا نواجه، الآن، بتعليقات وملاحظات غاية في الغرابة والتطرف من فئة بأكملها من الأيديولوجيين اليمينيين الذي يتشككون بالفعل في مدى "إنسانية" المسلمين بالأساس - باعتبارهم نتاجاً لثقافة عاجزة، كليا، عن

اللاحق بركب الحضارة العالمية - وكأن لم يكن للإسلام أدنى دور في خلقها. فهل سبق وأن تم توجيهه مثل ذلك النوع من الاتهام بحق أية حضارة أخرى؟ لقد تم اعتماد تلك اللهجة، بالفعل، ضد اليهود فيما شهده القرنان التاسع عشر والعشرون من جرائم منظمة بحقهم في أوروبا الشرقية، وما نجم عنها من مذابح جماعية. وفي تلك الحالات، بالطبع، لم يكن الأمر مجرد تمييز على أسس إثنية، وإنما نظريات عنصرية وعرقية كاملة قد تم نسجها حول اليهود وثقافتهم. وما تزال تلك المشاهد ماثلة في الذاكرة الحية.

كذلك، فإننا نشهد اليوم جدالات ومناقشات عميقة حول مدى قدرة المسلمين على اعتناق منهج "الحداثة"، وما إذا كانوا قد كفروا بكل ما هو عصري، وما إذا كان ثمة موطئ لقدم لهم، بالأساس، في الغرب. إن المخاوف من اعتزام المسلمين "ابتلاع" الغرب ديموجرافيا تبدو سافرة، إذ يتم التصريح بها علانية، فضلا عن التصريح بالمخاوف من نية المسلمين لفرض الإسلام بالإكراه، ومن سحق الإسلام "للمسيحية" التي أصابها الوهن والمعتنقة من قبل أوروبيين لا حيلة لهم ... هؤلاء الأوروبيون الذين سيفقدون، في اندفاعهم الليبرالي، أية قدرة على المقاومة. لقد تم ترسيم خريطة المعارك وحدودها، وتم رفع رايات القتال خفاقة. والأمر الذي يثير القلق والمخاوف هو تكرار التجربة اليهودية، إذ أضحى المسلمون في المجتمعات الأوروبية، وكأنهم "اليهود الجدد". وتجدر الإشارة إلى أن عددا لا بأس به من اليهود أنفسهم يلمسون في "الإسلاموفوبيا" الحالية ملامح العقلية ذاتها، والنهج نفسه لألمانيا النازية ولجرائم أوروبا المنظمة ضدهم.

### المسلمون الأوروبيون والعلمانية

فماذا، إذًا، عن القضية المثارة دائما على بساط الجدل، والخاصة بمشكلات المسلمين بشأن العلمانية؟ إن وجود "هوية إسلامية" في حد ذاتها، وخصوصا في فرنسا، ليفرض تحديا بوجه المفهوم الفرنسي للعلمانية، أو "اللأنيكية". فاللأنيكية لا

تستلزم الفصل الحاد ما بين الكنيسة والدولة، كما هي الحال في الولايات المتحدة الأمريكية، بل بالأحرى سيطرة الدولة على الشأن الديني والرقابة عليه. وقد أدت تلك العلمانية الصارمة إلى صدام فرنسا مع المسلمين بها في عدة مجالات، وبخاصة التعليم، حيث لا تسمح الدولة بالإفصاح الشخصي عما هو ديني في المدارس التابعة لها، لذا، فإن القانون هناك لا يتيح لفتيات تلك المدارس ارتداء أغطية الرأس، وهي قضية ذات شأن كبير ورمزية ثقافية بالغة للمجتمع المسلم. إن وجود أقلية جديدة ذات حجم كبير نسبيا يمثل الدين لها أهمية كبيرة باعتباره رمزا للهوية - قد أجبر فرنسا، وأوروبا بصفة عامة، على إعادة التفكير في معنى "اللائكية"، حين جاءت متطلبات التعددية الثقافية الآن لتصطدم بالعلمانية الفرنسية. كذلك، فقد أجبر الأوروبيون، والذين تنخفض لديهم، عامة، معدلات التدين، على إعادة تناول دور الدين في المجتمع، وفي حياة المجتمعات. وبيد الأمر، إلى حد ما، مؤلما وذا شجون، مع إعادة بعث قضية أمن الأوروبيون أنهم قد أودعوا لتدخل في سبات عميق بعد ما عانوا ويلات "الحروب الدينية" سابقا.

ويا للمفارقة ... !! فقد لاحظت الكنيسة الكاثوليكية تلك الظاهرة، ولم تمتنع عن أن تبدي بعضا من موافقة. فقد صرح الكاردينال "جان-لوى طوران"، رئيس إدارة التقارب ما بين الأديان بالكنيسة الكاثوليكية - أن "الدين" قد أصبح، الآن، محلا للحديث والكتابة عنه بأكثر من أى وقت مضى في أوروبا. "ويرجع الفضل في ذلك إلى المسلمين ... المسلمون، - والذين أضحوأ أقلية ذات شأن في أوروبا - هم من طالبوا بإفصاح مساحة للأمر الدينية في المجتمع ... نحن نحيا في مجتمعات متعددة الثقافات والأديان، وهذا جلى تماما. يمكننا القول بأنه لا توجد حضارة دينية صرف...".

إن غلاة مؤيدي العلمانية ومناصريها - والذين تفتقر حياتهم الخاصة إلى أدنى ملمح ديني - قد سعوا إلى إثارة القضية في حادثة "الرسوم الكاريكاتورية" الدانمركية الشهيرة، حيث قررت حفنة من العلمانيين الليبراليين بالدانمرك الحط

من قدر "الانضباط السياسي"، وممارسة حريتها في التعبير وإبداء مواقفها المناهضة للدين، بنشر رسوم كاريكاتورية مسيئة للنبي محمد. وبطبيعة الحال، فقد كانت ردات الفعل في العالم الإسلامي على ما اعتبر فعلا متعمدا للإساءة والتجديف - غاضبة وثائرة.

فما عسانا أن نفعل إزاء ذلك الحادث الذي استثار حرية التعبير ضد الحساسيات الدينية؟ لقد كان الدانمركيون يمارسون حقهم تماما في التعبير بحرية عن أية قضية تتراعى لهم. ولكن السؤال الحقيقي ينبغي أن يكون: هل كان من الحصافة وحسن التقدير التهكم والسخرية من النبي محمد، لمجرد إثبات إمكانية القيام بذلك؟! هل كان هذا هو التوقيت المناسب، خاصة والعالم الإسلامي بأسره يشعر بوطأة الحصار الرازح تحته جراء "الحرب العالمية ضد الإرهاب"؟! إن الرسوم الكاريكاتورية تلك لم يثر الدانمركيين المؤمنين ضد الدانمركيين غير المؤمنين، وإنما بالأحرى قد أثارت الأخيرين ضد قمة الرمزية الثقافية، والحضارية لأقلية ضئيلة العدد مهيضة الجناح تفتقر بشدة إلى من يتحدث باسمها، أو يعلى من قدرها في أوروبا - كذلك، مثلت تلك الرسوم، من وجهة نظر تلك الأقلية، اعتداء سافرا ضد كينونتتها ووجودها، وسخرية من حضورها وبقائها. تلك الأحداث قد تكون قريبة الشبه من التهكم والسخرية من اليهود لادعائهم أنهم "شعب الله المختار"، والتندر من خلال الكوميديا الساخرة على "الهولوكوست" (إن إنكار "الهولوكوست" يعد مخالفا للقانون في ألمانيا. كذلك، فقد مرت الجمعية الوطنية الفرنسية، عام ٢٠٠٦، مشروع قرار يقضى بحظر إنكار المذابح الجماعية التي ارتكبتها العثمانيون بحق الأرمن خلال الحرب الكونية الأولى).

ففي حدها الأدنى، أبانت تلك الرسوم الدانمركية غيابا للتقدير وحسن التصرف، وافتقارا للرؤية الاجتماعية، رغما عن كونها قانونية وشرعية بالكلية. ولكن ليس كل ما هو قانوني حقيقيا بالضرورة. وفي حقيقة الأمر، فإن الغرب مواجه هنا بضرورة التوفيق بين قيمتين مقدستين لا تقبلان التحدي أو المساس

بهما : ففي الغرب، لا يمكن بحال مجرد التفكير في مناقشة إمكانية تقليص حرية الرأي أو التعبير - إذ يبقى هذا الحق مقدساً. أما بالنسبة للمسلمين، حتى أولئك من غير نوى الغزعة الدينية، فإن مناقشة مجرد احتمالية التهكم أو التجديف في حق الإسلام، أو في ذات النبي محمد وشخصه ، لا يمكن تخيلها بتاتا- فذلك، إذًا، حرمة لا تنتهك. (ملاحظة : يعمد المسلمون، الآن، إلى الدفع بفناتهم الكوميديين والمونولوجست - في أوروبا وأمريكا الشمالية - للتهكم والسخرية من مجتمعاتهم الإسلامية ذاتها على نحو لا يستثير، مباشرة، مخاوف المسلمين من مشاعر العداة أو التمييز ضدهم).

ولقد أوجزت جماعة "الأزمات الدولية" المرموقة، بإتقان، تلك الأزمة في تحليلها للاضطرابات التي سادت باريس عام ٢٠٠٦، وذلك على النحو التالي :

إن المظاهر الراديكالية، وأعمال الشغب التي يقوم بها الشباب المسلم، على الأقل في فرنسا (ومن المحتمل، أيضا، في المملكة المتحدة) لا تعكس وجود الإسلام السياسي، وإنما تعكس غيابه، وإخفاقه ... لقد أخفق الإسلام السياسي، بجدارة، في تقديم حلول للمشاكل التي تفرضها الأحداث الراهنة. ونتيجة لذلك، تحول الشباب إلى "السلفية"، وهي حركة محدودة ترتكن إلى حرفية النص المقدس مشددة على ضرورة التزام الفرد بالتعاليم الدينية وفق قاعدة تأويلية ضيقة الأفق تشجع الانسحاب من المجتمع غير المسلم، وتدعو إلى العودة للذات بقدر من الانطوائية ورفض المجتمع والثقافة الفرنسيين. إذًا، فالصراع ينجذب نحو "حرب ثقافية حضارية" وليس نحو "حرب سياسية". ويخلق ذلك، بدوره، نوعا من "عدم التسييس" فيما يخص المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، وهو فراغ سياسى خطير ... وعدم رغبة في إشراك النظام السياسى من خلال القنوات السياسية لإبداء الاستياء والمطالبة بالتأثر. هذه العوامل، كلها، تخلف كتلة شبابية، لا ينتظمها رابط، مخيبة للأمال لما هي عليه من غضب واستثارة وعدم نضج ... تلك الكتلة التي تعبر عن مظالمها، على نحو متنام، من خلال "السلفية الجهادية"، وأعمال الشغب، والتي

يشعل وقودها ويذكي نيرانها، أحوال معيشية غير مستقرة، وبطالة فاشية، وتمييز اجتماعي، وما استجد من قيام "الأخر" من الحط من قدر الإسلام.

### وقد كتب أحد البريطانيين بعد تحوله إلى اعتناق الإسلام:

"نحن المسلمون بحاجة إلى "أجندة" جديدة، على أنه يجب ألا يتم تعريف ذلك بكونه "ليبرالية إسلامية". فالليبرالية في أمور الدين تنحو إلى إحداث ضعف وهشاشة في الإيمان. وبالمقابل، فنحن نريد أن نرجع ثانية إلى تقاليدنا، والتنقيب عن موارد تمكننا من استعادة روح صحابة النبي محمد الدمة والمرحة.

كذلك، فمن الجلي استحالة تبني الدعوة إذا ما هجرنا التقاليد والأعراف من أجل الإصرار على تأويل الشريعة وفق منهج يتسم بضيق الأفق وعدم المرونة. إن جيراننا لن يلتفتوا إلى دعوتنا إياهم إلا إذا أمكننا أن نريهم أن ثمة تشابهاً قائماً فيما بيننا، وأن لدينا أموراً ذات قيمة تغرى بالتناول، ولعل الأهم أن نجعلهم يدركون قيمة الانضمام إلينا. إن "الأجندة" الإسلامية الراديكالية المتزمته تبدو متبناة من قبل أناس متعصبين لا تعلق وجوههم ابتساماً، بل ينم محياهم عن توقرات كامنة، وصلف ويؤس باديين".

وعلى الجانب المقابل، تبدو أمارات مبشرة تجم الفؤاد وتشد الأزر. فإذا ما دلف المرء إلى موقع إسلامي بشهرة "إسلام أون لاين"، ومقره دولة قطر ... وطالع القسم المخصص للإجابة عن الأسئلة المطروحة لوجد ما يدعو للتفاؤل. ويرتبط هذا الموقع الإسلامي بواحد من أبرز رجالات الدين، ممن يتمتعون بموثوقية وسلطة فائقة ... الشيخ "يوسف القرضاوي".

### وفيما يلي نجد عرضاً لأحد الأسئلة والإجابة عنه :

س : أعزائي ... أريد أن أعرف، كمسلم، يحيا في الولايات المتحدة الأمريكية، واجباتي تجاه جماعتي هنا، أقصد تجاه وطني. كيف يمكن أن أدعّمه وأؤازره ضد

الأزمات المحدقة به من دون المساس بواجباتي الدينية؟ أريد أن أعرف كيف يتناول الإسلام هذا الشأن؟

ج : بواسطة د/مزمّل صديقي، رئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية :

يجب أن ندرك جيداً أن الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، لم تعد كما كانت قبل ذلك التاريخ. فقد تغيرت أمور عدة، وأمور أخرى في طور التغيير، بل وأمور سوف يطالها التغيير. إذاً، فيجب كمسلمين أن نقيم أنفسنا، ونعمل على تغيير بعض طرائق التفكير والسلوكيات الخاصة بنا. كذلك، علينا أن نخرج من عزلتنا، ويتعين علينا نبذ خلافاتنا الثانوية والعمل يدا بيد. ويجب علينا تقديم أنفسنا للمجتمع، وطرح قيمنا ومبادئنا الإسلامية أمامه، كما يتعين أن نسهم بنصيب وافر في هذا المجتمع من أجل السلام، والتناغم، وإرادة الخير، وإرساء قواعد المجتمع الخير، ليس لأنفسنا فحسب، وإنما للأمريكيين بأسرهم.

... إنه من الأهمية بمكان أن ننشئ أسراً خيرة، وأن نبقي على الروابط بين الأسر وبعضها البعض، ولكن علينا ألا نقتصر على أسرتنا فحسب، وإنما النظر إلى الناس كافة، والتعامل معهم باعتبارهم أسرة واحدة ...

فالدين ليس طقوساً وشعائر فحسب، وإنما هو إرساء السلوكيات المثالية وانتهاج الأخلاق القويمة. والدين دعوة للحدب على الفقراء ورعاية المعوزين. إن الدين يدعو إلى محبة جيراننا والإحسان إليهم ...

يتعين علينا أن نعمل جاهدين من أجل إرساء قيم العدالة والتوافق فيما بين الناس أجمعين، وكذا فيجب أن تكون نظرتنا شاملة، وليست ضيقة قاصرة ...

إن العدالة تتطلب أن يتم تقويم الباطل باستخدام الأساليب الخيرة. فالجور لا يمكن أن يُزال بجور آخر. فلا يمكن لخطأين أن يصنعا صواباً، والغايات النبيلة لا تسوغ الوسائل الوضيعة.

وقد ورد تعليق للدكتور/طه جابر العلوانى (الذى كان يشغل منصب رئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية، والتي تعرف حاليا بجامعة قرطبة، كما كان يشغل منصب رئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية :

لقد أوضح الباحثون المسلمون المرموقون، بجلاء، أن كل مسلم يحيا في الغرب، بصفة عامة، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، بصفة خاصة - تقع على عاتقه مهمة المشاركة في إرساء حياة طيبة خيرة لكل من يحيا معه كأعضاء في المجتمع، بغض الطرف عما إذا كانوا مسلمين أو غير ذلك. فالإسلام يحث المسلمين أن يصبحوا فاعلين، وكذلك مترقبين لما عساه أن يحدث في أى مجتمع يحيون فيه ... بيد أن ذلك لا يقصد به أن يخاطر المسلم بتعاليمه الدينية حين تكون بعض السياسات المتبعة من قبل حكومته في غير مصلحته، إذ يجب أن يجاهد مبتغيا الحق والعدالة أينما يكون، وفي أى منصب يشغله".

وأخيراً، وكما هى الحال فى جميع الأديان، يود المسلمون معرفة وجهات نظر مرجعياتهم وعلمائهم الدينيين وأحكامهم، بيد أنه، وفى النهاية، نجدهم يصدرون أحكامهم الذاتية بشأن كيفية الحفاظ على المبادئ والقواعد الإسلامية داخل المجتمعات الغربية، حين يكون التوصل إلى صيغة توافقية أمراً ضرورياً من دون الإضرار بهم. (يحرم البابا موانع الإنجاب، إلا أن المؤمنين من الكاثوليك فى إيطاليا لديهم أدنى معدلات الإنجاب فى أوروبا). وفى النهاية، سيقوم المسلمون بموازنة إحساسهم الفطرى مع التأويلات التقليدية لرجال الدين. بل لعل الأرجح أن يحيا هؤلاء من دون القلق بشأن المتناقضات المحتملة. فكثير من المسلمين لا يرتضى جميع الأحكام والفتاوى الصادرة عن رجال الدين على أنها "دوغما" لا يمكن رفضها، فضلاً عن أن هذه الأحكام وتلك الفتاوى تتباين كثيراً وفقاً لمصادرها. ويؤمن الكثير من المسلمين، والذين يصوتون لصالح الغرب عن طريق قدومهم إلى أراضيه، أنه لا ضير من أن يحيا المرء فى مجتمع غير مسلم، على أن يمارس حياته وفقاً لمعايير إسلامية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، عن طريق التعلم

على مر الأيام، والتكامل بصيغ أكثر اندماجا مع الأجيال المختلفة.

إن ما سبق كله لا يرتبط بالإسلام في حد ذاته، وإنما يرتبط بالديناميكيات المعقدة والمتناوبة للاندماج والتعددية الثقافية. إن الأوروبيين ليتعين عليهم قبول الثقافة الإسلامية كأحدى مكونات أوروبا الجديدة - مثلما تم قبول الثقافات اليهودية، والهندوسية، والصينية باعتبارها إسهاما في ثراء التعددية الثقافية بالغرب. كذلك، يجب علينا أن نحذر من "أسلمة" المشاكل الخاصة بالتعددية الثقافية، واندماج المهاجرين في مجتمعاتهم الجديدة.

وتبقى ملاحظة أخيرة بشأن نمو التعددية الثقافية وتطورها : إذ كتب ويليام دالريمبل، الصحفي والكاتب البريطاني : "إن الأمر ليبدو عصيا على التصديق، إنه في عالم محوره أحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر، وأسامة بن لادن، و"صدام الحضارات"، يكون أكثر الشعراء مبيعا فى الولايات المتحدة خلال تسعينيات القرن العشرين هو رجل دين مسلم حصل تعليمه بطرق تقليدية، وقام بتدريس الشريعة الإسلامية فى المدارس المخصصة لذلك". لقد كان دالريمبل يشير، بالطبع، إلى شاعر القرون الوسطى فارسى الأصل تركى الإقامة، جلال الدين الرومى، أحد أبرز شعراء الصوفية المحبوبين على امتداد العالم بأسره، إذ إن أشعاره تعد شفاء روحانيا للعالم برمته. وبالفعل، فإن روحانية الإسلام تظل إحدى إسهاماته الخالدة فى مسار الحضارة الإنسانية. وكما سيبدو الأمر عظيماً إذا تم إفساح المجال، بعض الشيء، أمام تلك الملامح الروحانية فى خضم التنازع والاضطراب السياسى والثقافى الذى يسم حياة كل من المسلمين والغربيين، فيما تدور الجدالات دورتها الخالدة حول الدين، والهوية، والمواطنة، والتسامح، والانتماء.